بسم الله الرحمن الرحيم

أعانك الله على درك الحق، وصرف وجهك له، وجعلنا وإياك ممن يعمل به، ويؤثره في جميع أحواله، ولا يكون حظه منه المعرفة دون الحث عليه والانقطاع إليه، وبعد:

فكأني بك وقد التبس عليك أمر الحقّ واشتبه سبيله، وصرت غريبا بين الناس لا تظفر بمطلوبك ولا تجد عندهم بغيتك، مع ادعاء كل منهم الصواب، واشتدادهم في نصرة ما ادعوه غير مبالين بعاقبة، ولا مكترثين بتبعة.

كل يغني على ليلاه متخذا * ليلى من الناس أو ليلى من الخشب**

ثم إنني قد بدا لي أن أجمع في أمّ الحوادث والمسائل في زمننا هذا، أعني التباس الحق بين الفرق والجماعات والدول، مقالا مختصرا لا آلو فيه جهدا، غير محتج بدليل، ولا مستشهد بكلام إمام، سوى التاريخِ الذي هو كتابُ الزمان وميزانه، ودستوره وإيوانه، فمن أمعن في مقالي هذا بصره، ونظر فيه بصحة العقل، وكان مع ذلك ثبتا في النظر، فطنا في العبر، أدركته الهداية إن شاء الله، وعرِف ما أرومه وأقصد إليهِ على وجه القياس، إذ ما أشبه اليوم بالأمس، والتاريخ ما ينفك يتكرر أبدا، سنة الله في خلقه، {فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا}.

ثم إن ظني بك أنك بعد النكبات التي لحقت أهل الإسلام واستحرار القتل فيهم، تركتَ اتباع الأحبار واتخاذهم أئمة إذ رأيتهم أبعد الناس عن نصرة الحق، إلا فيما وافقَ أهواء العامة، أو لم يكن فيه عليهم معتبة، وأنك لا تشكّ أن خلو الزمن عن قائم بالحق وناصر له بعيد عن رحمة الله ولطفه، فمن ثمَّ لم تزل في شك وبحثٍ عسى أن تظفر بمن هذه صفته، وقد عقلتَ أنّ لتخلف شيوخ

الضلالة أسبابا كثيرة ليس هذا مقام حصرها نحو الهوى والاستكبار وما جرى مجرى ذلك من أمراض القلوب، ثم الجهل والإعراض وهلم جرّا، مما لا نشتغل بتفصيله، إذ ليس يعنينا ههنا إلا التاريخ والسياسة، ولا يخفى عليك أن القوم خلو منهما، لا يرجعون فيهما إلى ما يشفي الصدر ويبل الصدى.

ولذلك أسباب ذكر ابن خلدون بعضها في تاريخه، قال: "الفصل الثاني والأربعون في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها، والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن، أمورا كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس. ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات وأيضا يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي. فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها في الذهن ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر. والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها فإنها خفية. ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها. ولا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر كما اشتبها في أمر واحد فلعلهما اختلفا في أمور فتكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالاتهم فيقعون في الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم" اهـ

وقال ابن رشد الجد: "والعمل بما في الكتب لمن لا يدري لا ينجي من الخطأ فيه لوجوه منها أن النازلة لا يجيء بها نص الكتاب إلا نادرا وأكثر ما يجيء شبيه بها وبتلك المشابهة يغلط بعض الناس فيكتب عليها شيئا بغير المعنى ويخرجها عن سببها لعدم علمه بالأصول التي قالها القوم فيخرج عن الأصل ويقع في الخطأ وهو لا يعلم". اهـ

واعتبر بحال هؤلاء الشيوخ الذين لم يفقهوا بعد حقيقة النظام الدوليّ فجعلوا يقيسونه بأزمنة الأولين سفها، ثم يلحقون الصغار والالتزام بالطاعة للطواغيت بأحكام الموادعات والمهادنات المبثوثة في كتب الفقه، مع أن بين المسألتين كما بين السماء والأرض، ولكنهم لما قنعوا باشتباه ظواهر الألفاظ دونَ حقائق المعاني جرهم ذلك إلى تسويغ الكفر والرضى به، فهذا مما لا يخفى على ذي نهية.

وبعد فقد **قال أبو شامة المقدسي في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين**: "قال مصعب الزبيري: "ما رأيت أحدا أعلم بأيام الناس من الشافعي ويروى عنه أنه قام على تعلم أيام الناس والأدب عشرين سنة وقال ما أردت بذلك إلا الاستعانة على الفقه".

قلت: وذلك عظيم الفائدة جليل العائدة وفي كتاب الله تعالى وسنة رسوله من أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الخالفة ما فيه عبر لذوى البصائر واستعداد ليوم تبلى السرائر **قال الله عز وجل وهو أصدق القائلين** {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} **وقال سبحانه** {ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر} .. هذا وإن الجاهل بعلم التاريخ راكب عمياء خابط خبط عشواء ينسب إلى من تقدم أخبار من تأخر ويعكس ذلك ولا يتدبر وإن رد عليه وهمه لا يتأثر وإن ذكر فلجهله لا يتذكر" اهـ

وإذ قد ثبت هذا، فلنبدأ ببيانِ غرضنا إن شاء الله، وذكرِ ما لو وقفت على علّته وظفرتَ بسرّه هُديت إلى وجه الحقّ فيما اختلف فيه أهل هذا الزمان، وبرزت بعون الله بين الأقران، إذ معرفة الأشياء بعللها مما يتشوف إليه، وسأذيل على كل خبرٍ من الأخبار متهكما ما ينهض عذرا لصاحبِه على الوشي الذي يحتج به سفهاء زمننا، لا على وجه إقرارهم عليه، فإن فساده بيّن، فتنبّه.

ثم إنك هُديت الحق ولا عداكَ فضله، لا تجهلُ مرثية أبي البقاء الرنديّ في الأندلسِ لمّا أفل نجمها، واندرس اسمها ورسمها، والتي مطلعها:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ * فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ**

هي الأيامُ قد شاهدتها دُولٌ * مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ**

إلى أن قال:

دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ له * هوى له أُحدٌ وانهد ثهلان**

أصابها العين في الإسلام فامتحنتْ * حتى خَلت منه أقطارٌ وبُلدانُ**

فاسأل بلنسية ما شأنُ مرسية * وأينَ شاطبة أمْ أينَ جَيَّـان**

وأين قرطبة دارُ العلوم فكم * من عالمٍ قد سما فيها له شانُ**

وأين حمص وما تحويه من نزهٍ * ونهرهُا العَذبُ فياضٌ وملآنُ**

قواعدُ كنَّ أركانَ البلاد فما * عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ**

تبكي الحنيفيةَ البيضاءُ من أسفٍ * كما بكى لفراق الإلفِ هيمانُ**

على ديار من الإسلام خالية * قد أقفرت ولها بالكفر عُمرانُ**

وبالضرورة يعلم كل ذي عقل أنَّ العلم بسببِ الشيء آية كان أم حديثا أم خبرا أم قصيدة مما يعينُ على تدبر المعنى وتفهمه، والإحاطة بدقيقه وجليله، فوجبَ أن نومئ إلى سببِ القصيدة إذ كان جلّ الناس يحسبونها قد قيلت زمن ملوك الطوائف، وليس كذلك، بل إنما انتشر ذكرها بعد الفتنة زمن

الموحدين وإرهاصات تملك بني نصر الخزرجيين وتمكنهم، وأيّ ذلك كان، فلننظر في سبب سقوط جيّان.

قال محمد عبد الله عنان في دولة الإسلام في الأندلس: "وبعث فرناندو قواته صوب الجنوب لتغزو فحص غرناطة، فعاثت في أنحائه وخربت كثيرا من ربوعه. ووقعت هذه الحوادث في أواخر سنة ١٢٤٤ م (أواسط سنة ٦٤٢ هـ) ثم قصد فرناندو بعد ذلك إلى قرطبة فاستراح بها حتى أوائل العام التالي.وكان أهم هدف لملك قشتالة في تلك المنطقة، هو الاستيلاء على مدينة جيان عاصمتها التالدة، وأمنع قواعدها، وكان قد حاصرها قبل ذلك في سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧ هـ) ولكنه أخفق في الاستيلاء عليها، وكان ابن الأحمر قد اتخذها مقرا لرياسته في مبدأ أمره. وكانت جيان مدينة عظيمة، حسنة التخطيط والبناء، ذات صروح وآثار جميلة، وكانت تتمتع بمناعة فائقة، سواء بأسوارها العالية، أو بقلعتها الحصينة الشامخة، التي مازالت أطلالها القائمة تنبىء بحصانتها القديمة، كما أنها بموقعها الطبيعي في منطقة من البسائط الخضراء اليانعة، كانت من أغنى قواعد الأندلس الوسطى وأكثرها رخاء، وكان الاستيلاء عليها يحقق للقشتاليين بسط سلطانهم على سائر أنحاء تلك المنطقة الغنية الخصبة. ومن ثم فقد عول فرناندو على افتتاحها، ولم يك ثمة سبيل آخر لتحقيق هذه الغاية سوى محاصرة هذه المدينة الكبيرة الغنية، حتى يرغمها الجوع على التسليم.

وفي أواخر سنة ٦٤٢ هـ (أوائل سنة ١٢٤٥ م)، أشرف فرناندو الثالث بقواته على مدينة جيان، وضرب حولها الحصار. ولم يكن هذا الحصار أمرا هينا لوقوعه في قلب الشتاء، وكان اشتداد البرد وهطل الأمطار، يضاعف متاعب الجند المحاصرين، واستمر الحصار على هذا النحو شهرا، وجيان صامدة، وقد خرج أهلها غير مرة لمقاتلة القشتاليين ففتكوا بهم وقتلوا وجرحوا الكثيرين منهم. بيد أن المدينة المحصورة كانت من جهة أخرى تعاني من الحرمان والجوع. وكان واليها أبو عمر علي

بن موسى، حينما شعر بتحركات القشتاليين ومراميهم، قد أرسل قبل الحصار إلى ابن الأحمر يستغيث به، ويطلب إنجاده بالمؤن، لكي تستطيع المدينة مقاومة النصارى، فبعث إليه ابن الأحمر بقافلة كبيرة من المؤن استطاعت أن تجتنب القشتاليين، وأن تصل إلى المدينة، فلما طال الحصار نفدت الأقوات، وأخذ الموقف يتحرج، ومع ذلك فقد لبثت المدينة على صمودها. وكان ابن الأحمر خلال ذلك يرقب الحوادث بمنتهى الجزع، وكانت غزوات القشتاليين قد وصلت غير مرة، إلى فحص غرناطة، وإلى غرناطة ذاتها، وشعر ابن الأحمر أنه لابد أن يلتمس الوسيلة لتأمين سلطانه، واجتناب عادية القشتاليين، ولم يك ثمة وسيلة أنجع من التفاهم مع ملك قشتالة، والحصول على مهادنته".

قلت –بأس-: لا يخفى عليك أن ابن الاحمر كان **مضطرًّا**، يخشى على مصلحة المسلمين في غرناطة، ويخاف عليهم من الفناء، لا جرمَ طلبَ مهادنة ملك قشتالة عسى أن يخرج لا له ولا عليه، **وللضرورات أحكام**.

رجع الكلام إلى عنان، قال: "ومن جهة أخرى فقد أدرك ابن الأحمر، أنه لا سبيل إلى إنجاد جيان، أو اجتناب مصيرها المحتوم، وأنه يحسن تدارك الموقف، قبل أن تسقط المدينة في أيدي القشتاليين، أو يقومون باقتحامها وتخريبها. ومن ثم فقد بدأ ابن **الأحمر بمفاوضة ملك قشتالة** وكان فرناندو الثالث يصر على أن يكون أساس التفاهم مبدأ واحدا لا سبيل إلى تغييره، هو وجوب خضوع ابن الأحمر لسيادته، والاعتراف بطاعته، ولم ير ابن الأحمر محيصا عن **قبول هذا الشرط** المؤلم، فسار بنفسه إلى المعسكر القشتالي تحت أسوار مدينة جيان، وقدم طاعته إلى ملك قشتالة. وعقدت بين الملكين معاهدة سلام وتحالف، خلاصتها:

- أن تسلم مدينة جيان وأعمالها في الحال إلى ملك قشتالة.
- **وأن يحكم ابن الأحمر مملكة غرناطة وسائر أراضيها، باعتباره تابعا لملك قشتالة**، بكل ما يستتبعه هذا الاعتراف من فروض.
- وأن **يتعاون ابن الأحمر مع قشتالة في الحرب وفي السلم**، وأن يشهد اجتماع الكورتيس (مجلس قشتالة النيابى).
- **وأخيرا أن يؤدي ابن الأحمر إلى ملك قشتالة جزية قدرها مائة وخمسون ألف مرافيدى تؤدى خلال عشرين عاما**، وهي المدة التي اتفق أن يعقد خلالها السلم والتهادن بين الفريقين. وتم عقد هذه المعاهدة في أوائل سنة ١٢٤٦ م (أواخر سنة ٦٤٣ هـ)".

قلت -بأس-: كأني بك تلوم ابن الأحمر لأجل صنيعه وترى أنه ارتد أو كاد بالدخول تحت راية المشركين، ولعلك أن تحتج في ذلك بكلام الله سبحانه في موالاة من كفر به والدخول تحت حكمه وسلطانه، ولكن على رسلك، فإن ابن الأحمر كان **مضطرا**، ورأى أنَّه إذا لم يسلم جيان للقشتاليين، ولم ينزل تحت حكمهم ولا أقر بسيادتهم ولا دخل تحت طاعتهم ولا نصرهم على المسلمين ولا أضحى ركنا من أركان حلف الصليبيين فإنّ ذلك **قد يكون سببا في زوال غرناطة كذلك وهتك الأعراض وسبي النساء والذراري**، وقد تعلم أن **ليس الفقيه من يعرف خير الخيرين، ولكنه من يعرف شر الشرين، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة**، وليسَ في مهادنة المشركين ما يعيب الرجل وكيف، **وهذا سيد ولد آدمَ قدْ صالح المشركين يوم الحديبية، وسمّى الله ذلك فتحا مبينا!**، ولا تسل -هداك الله- عن امتناع النبي عليه السلام عن الدخول تحت راية قريش وعن مظاهرتهم على أبي بصير رضي الله عنه وغيره ممنْ جعل يحاربهم ويقعد لهم كل مرصد، فإن الكيف مجهول، والمعنى غير معقول، والسؤال بدعة.

رجع الكلام إلى عنان، قال: "وعلى أثر ذلك دخل القشتاليون مدينة جيان العظيمة، وحول **مسجدها الجامع في الحال إلى كنيسة،** وغادرها معظم أهلها المسلمين، وتفرقوا في قواعد الأندلس الجنوبية. ولما تم احتلال الجند النصارى للمدينة، **دخلها ملك قشتالة، في موكب فخم،** وشهد القداس الذي أقيم في جامعها ابتهاجا بالنصر، ووزع دور المدينة على أكابر الفرسان، ومعظمهم من جماعة فرسان شنت ياقب، وجماعة فرسان قلعة رباح.

ونزل ابن الأحمر للقشتاليين، عدا جيان، عن أرجونة بلده ومثوى أسرته، وعن بركونة وبيغ والحجار، وكذلك نزل إليهم عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها. وهكذا اشترى ابن الأحمر سلامته، وسلامة مملكته وأراضيه بهذا الثمن الفادح، وارتضى بالأخص أن يضحى باستقلاله السياسي وهيبته الملوكية إلى حين، وذلك لكي يأمن شر عدوان خصمه القوي القاهر، ولكى يتفرغ إلى تنظيم مملكته وإلى توطيد سلطانه الداخلي".

قلت -بأس-: إنما كان ذلك على ما علل أحدُ (معلمي الغلمان) في زمننا ممن انتهض إلى الكلام في الشريعة والسياسة: دهاءً قصد به ابن الأحمر التقوّي حتى حين، عسى أن يستردّ كل ما تملكه ملك قشتالة من أيدي المسلمين، ولا ريبَ أنه كان في **استضعاف كليّ، وتمكين جزئيّ،** فمن ثم لم يستطع إلى مجاهدة المشركين سبيلا.

رجع الكلام إلى عنان، قال: "كانت إشبيلية بعد قرطبة، هي التي تجذب عندئذ أنظار ملك قشتالة، وأنظار الأحبار وجماعات الفرسان النصارى، وهم الذين كانوا يفوزون من غنائم المدن المفتوحة، بأعظم قسط. ولكن إشبيلية لم تكن هدفا سهل المنال، ولم تكن مثل قرطبة مجردة من وسائل الدفاع،

وكانت خطوطها الدفاعية الأمامية، ماتزال تدعمها طائفة من القواعد والحصون القوية، التي كان لابد من إخضاعها قبل الإقدام على منازلة إشبيلية ذاتها.

ولما قام **ابن هود** بثورته في شرقي الأندلس، وبزغ نجمه، وأطاعته معظم القواعد الشرقية والوسطى، خلعت إشبيلية طاعة الموحدين، ونادت بطاعته، وولي عليها أخاه عماد الدولة. ولكن أهل إشبيلية لم يلبثوا طويلا على طاعته، **فنكثوا ببيعته، وأخرجوا أخاه من المدينة**، والتفوا حول قاضيهم **ابن مروان الباجي**، وذلك في سنة ٦٢٩ هـ. ولما قوي أمر ابن الأحمر أمير جيان يومئذ في المنطقة الوسطى، واشتدت المنافسة بينه وبين ابن هود، تفاهم ابن الأحمر مع الباجي، **وتحالف الاثنان على قتال ابن هود**، وهزماه على مقربة من إشبيلية (٦٣١ هـ)، ودخل ابن الأحمر إشبيلية، **وغدر بحليفه الباجي، ودس عليه من قتله**، فثار به أهل إشبيلية، وأخرجوه منها، **ونادوا بطاعة ابن هود** مرة أخرى".

إلى أن قال: "وقتل أهل إشبيلية ابن الجد، إذ كان هو السبب في قدوم بعض المفسدين إليها. وتزيد الرواية على ذلك، أن مقتل ابن الجد كان سببا في زحف النصارى على إشبيلية وحصارهم لها، إذ كان ملك قشتالة مصادقا لابن الجد ومصالحا له على المسلمين فلما قتل فسد هذا الصلح، وقام النصارى بحصارهم.

وأما حقيقة هذه العلاقات التي كانت قائمة بين ابن الجد وبين فرناندو الثالث ملك قشتالة، والتي كانت كفيلة بقيام التهادن بينه وبين النصارى، وتأمين سلام إشبيلية، فمردها إلى معاهدة كانت قد عقدت بين ابن الجد باعتباره صاحب إشبيلية أو أميرها، وبين ملك قشتالة، **على نمط المعاهدة التي عقدت بين هذا الملك وبين ابن الأحمر**، وخلاصتها أن يعترف بطاعة ملك قشتالة، وأن يؤدي إليه

الجزية. وأن يشهد اجتمعات " الكورتيس " باعتباره من أتباعه، **وأن يقدم إليه العون متى طلب إليه ذلك**. وربما كانت تتضمن فوق ذلك، تعهده بتسليم بعض المواقع والحصون في منطقة إشبيلية.

وقد رأينا فيما تقدم أنه لم يكن يكفل سكون ملك قشتالة المؤقت، ومسالمة الزعماء المسلمين سوى هذه العهود وأمثالها. فلما قتل ابن الجد، وانقلب أهل إشبيلية إلى مخاصمة النصارى، غضب ملك قشتالة لما حدث، وأبدى امتعاضه لمقتل صديقه ابن الجد. وكان زعماء إشبيلية الجدد، قد أدركوا غير بعيد، ما قد يؤدي إليه مخاصمة النصارى من سيئ العواقب، فحاولوا السعي في تجديد الهدنة مع ملك قشتالة، ولكن فرناندو الثالث لم يرد أن يعقد التفاهم مع زعماء إشبيلية الجدد، وبالعكس فقد كان يرى أن يتخذ مصرع ابن الجد ذريعة للتدخل والانتقام، وأن هذا هو الطريق المفضل عندئذ للتصرف والعمل، وأن الوقت حان لكي ينهض إلى افتتاح إشبيلية".

قلت -بأس-: لا تأس على ما سيحل بإشبيلية بعد إذ كان ذلك بتسبب من أهلها، **ولو أنهم أقاموا على الاستضعاف ولم يمانعوا النصارى ولا جهروا بعداوتهم لما حل بهم ما حلّ**، وأعيذك بالله أن تلوم بقية المسلمين الذين **لم ينصروهم**، أو تلوم **ابن الأحمر الموالي للقشتاليين** وغيرَه ممن أطاع حلف قشتالة الصليبي لمحاربة الخارجين عليه، فإنه لا يصح لوم أحد سوَى من اتبع دينه ولزم يقينه.

فنفسك لم ولا تلم المطايا * ومت كمدا فليس لك اعتذار**

رجع الكلام إلى عنان، قال: "وفي خريف سنة ١٢٤٦ م (أوائل سنة ٦٤٤ هـ) حشد ملك قشتالة بعض قواته، ولاسيما من فرسان شنت ياقب وفرسان قلعة رباح، وجيش قرطبة، وسار في قواته صوب إشبيلية، وعبر الوادي الكبير تجاه قرمونة، وأخذ ينتسف زروع هذه المنطقة ويخرب ضياعها،

ويأسر من يلقى من المسلمين. وهنالك على مقربة من قرمونة، وافاه ابن الأحمر حليفه وتابعه في قوة قوامها خمسمائة فارس".

قلت -بأس-: وما خمسمائة فارس؟، أترى ابن الأحمر يستولي على إشبيلية بهؤلاء الخمسمائة؟، كلا والله، إن هو إلا تحصيل حاصل، **وقد كان الحلف الصليبي القشتالي أمرا واقعا**، ولم يملك ابن الأحمر محاربته ولا إخراجه فمن ثمّ داراه وهادنه، **ودخل في الجيش على وجه تكثير سواده من غير قصد إلى سفك دماء المسلمين في إشبيلية**، وإنما أراد التخفيف من وطأة المشركين عليهم، واستنقاذ المسلمين فيها من القشتاليين ما أمكنه، وإياك إياك أن تحتج **بحديث النبي** ﷺ في أن مكثر سواد القوم منهم، **أو الأثر المروي عنه أنه**: "دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟! قال: مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذبابة، فقرب ذبابة، فخلوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر: قرب فقال: ما كنت لأقرب شيئا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة".

رجع الكلام إلى عنان، قال: "وسارت القوات المشتركة جنوبا نحو قلعة جابر حصن إشبيلية من الجنوب الشرقي، وانتهى ابن الأحمر بإقناع حاميتها الإسلامية بتسليمها حقنا للدماء، وصونا للأموال والأرزاق، وتسلم فرناندو الثالث القلعة، ووضع بها حامية نصرانية، وأخذ النصارى في إصلاحها وتحصينها. وبعث فرناندو بعد ذلك بعض قواته بقيادة أخيه دون ألفونسو وبلاى كوريا أستاذ فرسان شنت ياقب، لكي تعبر الوادي الكبير غربا، وتقوم بتخريب فحص الشرف الممتد أمام إشبيلية، وبعث حملة مشتركة من قوات غرناطة وقشتالة وفرسان قلعة رباح، لتسير جنوبا، ولتقوم بتخريب فحص شريش. (صيف سنة ١٢٤٧ م) وهنالك احتشدت قوات جماعات

الفرسان الدينية، وقوات ليون وبطليوس وغيرها، وسير فرناندو بعض قواته إلى قرمونة، وهي أمنع حصون إشبيلية الأمامية من ناحية الشمال الشرقي، فخربت سائر البسائط المحيطة بها، ثم لحقت بها بعد ذلك قوات أخرى من مختلف ولايات قشتالة، وتزيد الرواية النصرانية على ذلك أن قوات غرناطة، كانت ضمن الحشود الوافدة على قرمونة، وهو ما يعنى اشتراك ابن الأحمر في جيش الغزو القشتالي لإشبيلية. والواقع أن الرواية الإسلامية حسبما نرى بعد، تؤيد وجود ابن الأحمر وجنده، تحت أسوار إشبيلية إلى جانب القوات القشتالية المحاصرة.

وطوق النصارى قرمونة بحشود ضخمة، فلما رأى أهل قرمونة ضخامة هذه الحشود، وأيقنوا بعبث الدفاع، عرضوا تسليم المدينة بعد ستة أشهر، إذا لم تصلهم خلالها نجدة ما، فقبل ملك قشتالة هذا العرض، ثم سار في قواته صوب إشبيلية من طريق شمالية بحذاء الوادي الكبير، واستولى في طريقه على لورة بالأمان، واعترف أهلها بطاعته، ثم سار بعد ذلك إلى قنطلانة، الواقعة شمالي إشبيلية على الوادي الكبير، وهاجمها، واقتحمها عنوة، وأسر منها سبعمائة مسلم، وقصد بعد ذلك إلى غليانة، فسلم أهلها اعتبارا بما حدث لقنطلانة، وكذلك سلمت جرينة القريبة منها، وبعث فرناندو بعد ذلك قوة إلى بلدة القلعة الحصينة الواقعة على الوادي الكبير، على مقربة من شمالي إشبيلية، فصمدت حاميتها وصممت على المقاومة. وكان أهل إشبيلية قد شحنوها بالجند والمؤن تقديرا لأهميتها في الدفاع عن المدينة.

واضطر فرناندو أن يحاصرها، وضربها القشتاليون بالآلات، وخرجت حاميتها غير مرة لتشتبك مع النصارى في معارك عنيفة، وقام النصارى بتخريب سائر ما حولها من الكروم والزروع، وأخيرا رأى قائد الحصن أبو الحسن بن أبي علي حاكم قرمونة السابق، أنه من العبث أن يستمر في الدفاع على هذا النحو، فاتفق مع ملك قشتالة على أن ينسحب في جنده، وهم ثلاثمائة فارس إلى إشبيلية،

وأن تسلم المدينة بالأمان، وفقا لأفضل الشروط الممكنة، وهكذا سقطت القلعة، وبسقوطها أصبحت سائر الحصون الأمامية لإشبيلية من جهة الشرق والشمال، والغرب كلها في أيدي القشتاليين.

ونستطيع أن نتصور الدور الذي قام به ابن الأحمر ملك غرناطة في معاونة ملك قشتالة على إخضاع هذه المجموعة الكبيرة من البلاد والحصون الهامة، منذ قرمونة حتى القلعة، وذلك بإقناع أهلها والمدافعين عنها بالتسليم بالأمان، وإقناع ملك قشتالة من جهة أخرى بالتساهل في شروط التسليم، **على أن دور الزعيم المسلم لم يقف عند هذا الحد، بل تعداه كما سنرى إلى معاونة النصارى ومؤازرة جهودهم ضد المسلمين، بطريقة إيجابية فعالة**".

قلت -بأس-: ألم يكن لأهل قرمونة والقلعة مندوحة في التسليم والنزول إلى حكم الحلف الصليبي القشتالي عن محاربته؟، وهل كان في جهاده أي ظفر سوى أنه اشتطّ في شروطه وأمعن في كفره وإجرامه، فسلموه بذلك البلاد وأهلكوا بقتاله العباد!.

رجع الكلام إلى عنان، قال: "ولم يكن حصار إشبيلية أمرا سهلا، وكان لابد لتحقيقه من تعاون سائر القوات البرية والبحرية، ومن جهة أخرى فقد كان من الضروري أن يعمل حساب لهجمات المسلمين على مختلف القوات النصرانية، وقد كانت إشبيلية تموج بقوات مدافعة زاخرة حسنة الأهبة، وكانت مشحونة بكميات وافرة من الطعام توقعا لحدوث هذا الحصار، وكان من حسن الحظ أن استطاع أهل المدينة أن يجمعوا محاصيل فحص الشرف قبل مقدم النصارى. وكانت مهمة القشتاليين في المرابطة على ضفة الوادي الكبير، وفي الوقت الذي كان فيه ملك قشتالة يمهد لتنفيذ خطته في حصار إشبيلية، كان أهل إشبيلية من جانبهم يستعدون للذود عن مدينتهم بكل ما

وسعوا. وقد سجل لنا التاريخ، ولاسيما عن طريق الرواية النصرانية، عن دفاع أهل إشبيلية، صحفا رائعة من البسالة والتضحية. ولكن الرواية الإسلامية، لا تقدم إلينا مع الأسف تفاصيل شافية عن هذا الدفاع، بل هي لا تذكر لنا سوى القليل عن الزعماء الذين قادوا هذه المعركة الدفاعية المجيدة، التي استطالت خمسة عشر شهرا. فهي لا تعرفنا بشيء عن القائد شقاف وزملائه، يحيى بن خلدون، وابن شعيب، ومسعود بن خيار، وهم زعماء إشبيلية، الذين ألقى القدر عليهم تبعة السهر على مصايرها، في تلك الفترة الدقيقة، وكل ما هنالك أنها تحدثنا عن شقاف في كلمة عابرة، وتصفه "بقائد الفحص شقاف المشهور، الذي كان السبب مع قضاء الله تعالى في دخول النصارى مدينة إشبيلية".

وتحدثنا الرواية النصرانية عن زعماء إشبيلية وقت حصارها، فتذكر منهم شقاف وهو لديها Axataf، وتسميه أحيانا أبو الحسن الشقاف، والرئيس ابن شعيب. وإذا فلابد لنا أن نعتمد في استقاء تفاصيل الأحداث التي اقترنت بمصير إشبيلية الأخير، وكذلك أعمال الزعماء الذين قادوها عندئذ، بالأخص على أقوال الرواية النصرانية.

وكان من الأحداث المؤلمة التي تنفطر لها النفس، **وجود ابن الأحمر أمير غرناطة على رأس قوة من فرسانه، إلى جانب القوات النصرانية المحاصرة**، وذلك وفاء بتعهداته لملك قشتالة، وكان يرابط بقواته إلى جانب فرسان شنت ياقب جنوبي حصن الفرج، وهكذا كان هذا الأمير المسلم يشترك مع أعداء أمته ودينه في تطويق الحاضرة الإسلامية، ومحاولة افتتاحها، وتشريد أهلها وسحق دعوة الإسلام بها. ويفسر لنا ابن خلدون هذا التصرف المشين من جانب الأمير المسلم، بأن ابن الأحمر كان يرمي بمعاونة النصارى على هذا النحو، إلى الانتقام من أهل إشبيلية، لأنهم خذلوه ونكلوا عن طاعته، وأخرجوه من المدينة".

قلت -بأس-: هذا كلام لا عبرة به إذ كان **جهلًا بفقه الواقع والمآلات**، ثمّ ألا ترى إلى ما ذكره ابن خلدون عن أهل إشبيلية، وأنهم خرجوا على أميرهم ابن الأحمر؟

وبالضرورة يعلم كل أحد أن من خرج على أميره المتغلب فهو خارجي مارق كلب من كلاب النار على ما يصفُ جماعة من المتفقهة في زمننا، **لا جرمَ تولّى ابن الأحمر القشتاليين على الخوارج**، وقد علمت أن في تكفيرهم خلافا مشهورا، ولست تعلم ما تأويل ابن الأحمر في ركوبه ما ركب، ولا أيّ شيخ أباح له فعله وصنيعه، فامسك عليك لسانك، وأقل عثاره.

رجع الكلام إلى عنان، قال: "وكان أهل إشبيلية، لاطمئنانهم إلى حالة التموين يحصرون اهتمامهم في مقاتلة النصارى، والاشتباك معهم كلما سنحت الفرص. وقد نظم المسلمون غير كمين للإيقاع بالنصارى، وأصيب النصارى بالهزيمة غير مرة، ومنى منهم فرسان القنطرة وقلعة رباح، بخسائر فادحة، وخرج المسلمون في قوة كبيرة، هاجمت المحلة الملكية، فردتها قوات ولى العهد ألفونسو والإنفانت إنريكى، فعادت إلى المدينة بعد أن تكبدت بعض الخسائر. وكان النصارى خلال الحصار يخرجون إلى القرى والضياع المجاورة، ويقومون بتخريبها وانتهابها، ومن ذلك أنهم اقتحموا منية البحيرة الغاصة بالحدائق، والرياض، الواقعة في جنوب شرقي المدينة، والتي كان قد أنشأها الموحدون، وعاثوا فيها، ونهبوا الماشية والمتاع والثياب، وقتلوا من كان بها من المسلمين، وأحرقوا دورها، وفعلوا مثل ذلك بربض مقرينه، الواقع في شمالها الشرقي.

وفي ربيع سنة ١٢٤٨ م، وفدت على المعسكر النصراني طوائف كثيرة من الجند، منها قوة من فرسان قشتالة، بقيادة ولى العهد ألفونسو، وقوة من فرسان قطلونية، بقيادة ألفونسو ولى عهد أراجون، وقوة من الفرسان البرتغاليين بقيادة بيدرو ولى عهد البرتغال، وقوة من جند بسكونية وقشتالة

القديمة بقيادة لوبيث دي هارو، وكذلك قدم يوحنا مطران شنت ياقب في قوة من جند جليقية، قدمت حشود أخرى من مدينة سالم، ومدلين، وقورية، وغيرها، ووفد كثير من الأساقفة والرهبان، وفرسان الجماعات الدينية، وانضمت هذه الحشود الجديدة، إلى القوات المحاصرة، في مختلف مناطق الحصار، وهكذا عزز الحصار حول إشبيلية، وأحكمت حلقاته، وعول ملك قشتالة، أن يلجأ إلى الوسيلة، المأمونة المؤكدة، وهي إرهاق المدينة بأقصى ما يستطاع، وإرغامها على التسليم بالجوع والحرمان.

وكان قد مضى على حصار النصارى لإشبيلية زهاء تسعة أشهر وهي صامدة، تزداد ثباتا وإصرارا على مدافعة النصارى، ولكنها مذ أحكمت حولها حلقات الحصار، أخذت تشعر بالضيق يدب إليها حثيثا، وشبح الجوع يقترب منها شيئا فشيئا. ولم يبق لديها عندئذ سبيل للتنفس البطيء سوى طريانة، قلعتها الجنوبية الغربية المشرفة على الشرف. وهنا كرر أهل إشبيلية صريخهم إلى المغرب، وإلى سائر أمرائه وزعمائه، يصفون محنتهم الغامرة، ويلتمسون الغوث والإنجاد قبل فوات الوقت. وكان مما نظمه في هذه المناسبة شاعر إشبيلية يومئذ، إبراهيم ابن سهل الإشبيلي الإسرائيلى قصيدة مؤثرة، يستصرخ فيها أهل العدوة، ويستحثهم على المبادرة إلى نصرة إخوانهم في الدين وفيها يقول:

وردا فمضون نجاح المصدر * هي عزة الدنيا وفوز المحشر**

نادى الجهاد بكم بنصر مضمر * يبدو لكم بين القنا والضمر**

خلوا الديار لدار عز واركبوا * عبر العجاج إلى النعيم الأخضر**

وتسوغوا كدر المناهل في السرى * ترووا بماء الحوض غير مكدر**

يا معشر العرب الذين توارثوا * شيم الحمية كابرا عن أكبر**

إن الإله قد اشترى أرواحكم * بيعوا ويهنئكم وفاء المشترى**

أنتم أحق بنصر دين نبيكم * ولكم تمهد في قديم الأعصر**

وبعد حصار صارم مرهق استمر خمسة عشر شهرا، غاض كل أمل في الإنقاذ والإنجاد، فلم يتحرك الموحدون لانشغالهم بمكافحة بني مرين، وأمير إفريقية الذي اتخذ لقب الخلافة، ولم يتحرك أمير إفريقية لما سبق من موقف الإشبيليين نحو عماله، وربما أيضا اعتبارا بما حدث من فشل محاولته لإنقاذ بلنسية، وقد كان إنجادها أقرب وأيسر. فلما بلغ الضيق أشده، طلب القائد شقاف وهو في طريانة، إلى النصارى هدنة ليتمكن من الاتصال بأهل المدينة، والتفاهم معهم على التسليم. وبحث زعماء المدينة الموقف من سائر نواحيه، واتفقوا على أن يسلموا إلى ملك قشتالة القصر وجباية المدينة، على ألا يدفعوا من المكوس أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم، ولكن ملك قشتالة رفض هذا العرض الجزئي رفضا باتا، فعاد الزعماء وعرضوا أن يسلموا القصر وثلث المدينة، فرفض هذا العرض أيضا. واضطر الزعماء أن يتقدموا خطوة أخرى. فعرضوا أن يسلموا نصف المدينة، بعد أن يخليه المسلمون، وأن يترك النصف الآخر للمسلمين، وأن يقام بين النصفين سور فاصل. ونصح بعض مستشاري الملك إليه بقبول هذا العرض، ولكن ملك قشتالة أصر على أن يتسلم المدينة كلها حرة ودون شروط.

وعندئذ لم ير زعماء إشبيلية وأهلها، بدا من قبول مصيرهم المحتوم، وجرت المفاوضة بينهم وبين ملك قشتالة في تسليم المدينة، وذلك عن طريق ممثل ملك قشتالة، دون ردريجو ألباريس، وانتهت المفاوضات بين الفريقين على أن تسلم المدينة **بالشروط الآتية:** أن تسلم المدينة كاملة حرة سليمة، لا يهدم من صروحها شيء، وأن يغادرها سكانها مع السماح لهم بأن يحملوا معهم كل أمتعتهم

المنقولة والمال والسلاح، وأن تسلم مع المدينة سائر الأراضي التابعة لها، وأن يعطى ملك قشتالة إلى القائد شقاف، والرئيس ابن شعيب، من بلاد الشرف، شلوقه وحصن الفرج، ثم لبلة متى تم افتتاحها، واتفق على أن تمنح لأهل المدينة مهلة لا تقل عن الشهر لتسوية شؤونهم وإخلاء دورهم، والتأهب للرحيل.

وقضى المسلمون زهاء شهر في إخلاء المدينة، وتصفية شؤونهم، وبيع متاعهم، وكان ملك قشتالة، يسرح سريات من فرسانه لتأمين المهاجرين منهم بطريق البر حتى مدينة شريش، وحتى ثغر سبتة لتأمين المهاجرين منهم بطريق البحر، وخصص لذلك الغرض أسطولا يتكون من خمس سفن كبيرة، وثماني صغيرة، وخرجت من إشبيلية جموع غفيرة من المسلمين يصعب تحديد عددها، وتشمل سائر الطبقات. ولم تحدد لنا الرواية الإسلامية عدد المهاجرين منها، ولكنها تقول لنا فقط إنه قد خرج الخاص منها والعام "وكل منهم في بحر المنايا غاص وعام، مماحل بهم من الأوجال والآلام"، وتقدر بعض الروايات من خرج من أهل إشبيلية من المسلمين بأربعمائة ألف، منهم مائة ألف هاجروا بطريق البحر إلى سبتة، وثلاثمائة ألف ساروا برا بطريق شريش، وتفرقوا في مختلف الأنحاء بالأندلس والمغرب. وقصد أكثرهم بالأندلس مملكة غرناطة، وذلك بتشجيع ابن الأحمر، وكورة لبلة وغربي الأندلس، وقصد من عبر البحر منهم إلى مختلف ثغور المغرب، ولاسيما سبتة وتونس، وكان في مقدمة من غادرها منهم زعيمها القائد شقاف، ولم يحفل بما عرضه النصارى عليه من منح وإقطاعات وعبر البحر إلى سبتة مع جماعة من القواد والأجناد، وبقيت إشبيلية، بعد أن غادرها أهلها، خالية ثلاثة أيام. وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٢٤٨ م، (أوائل رمضان سنة ٦٤٦ هـ) دخل فرناندو الثالث ملك قشتالة، مدينة إشبيلية".

قلت -بأس-: ألم ترَ إلى ما وقعَ بأهل إشبيلية وكيف أضحوا أثرا بعد عين، وما عليهم لو أنهم أذعنوا للملك القشتالي ودخلوا تحت طاعته؟، ولكنهم لما امتنعوا عنه وأبوا إلا جهاده مع ضعفِ الأمة وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم حلّ بهم ما حلّ، ولقد كان لهم مندوحة عن القتال في الرضى بالمنسوخ عن الناسخ، وبأوائل السور عن أواخرها، ولكنّهم لما أخذوا بكتاب الله كلّه كان ما رأيت، حتّى تسلط العدو على الأمة وغنم خيراتها، وأخذ دورها، وسبى النساء وإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال ابن عذاري في المعيار المغرب: "وفي سنة خمس وأربعين وستمئة أحدقت النصارى بمدينة إشبيلية وحاصروهم برّا وبحرا، وأذاقوا أهلها شرا، وأخذوا خلقا كثيرا من أهلها واختطفوا في الأجفان بعض أطفالها وضيقوا بها غاية التضييق، ورموا بالحجارة والمنجنيق، وعدموا المرافق كلها قليلها وجليلها إلا ما كان في بعض ديار الأغنياء، فإنهم كانوا يحتاطون في تلك الأمور، مثل الفقيه القاضي ابن منظور، فإنه كان يطمع في إقلاع النصارى عن المدينة فيأمر الناس بالقتال والرمي بالنبال، والناس مع ذلك حيارى، يمشون سكارى وماهم بسكارى، ومات بالجوع خلق كثير، وعدمت الأطعمة من القمح والشعير، وأكل الناس الجلود، وفنيت المقاتلة من العامة وأصناف الجنود.

ولما انتهى بإشبيلية شدة الحصار، وعدموا الأنصار من الأمصار، وصاروا في قبضة أعداء الله الكفار، خاطبوا أمير المؤمنين المعتضد بالله السعيد وكافة المسلمين من أهل العدوة يستصرخونهم ويعرفونهم ما نالهم من الجهد العظيم والكرب الشديد الأليم، ويرغبونهم في نصرتهم، ويحضونهم على جهاد أعداء الله الكافرين، **فمن ذلك قصيدة يرق لها القلب القاسي، وتأتمر لها الجبال الرواسي، نظمها أبو موسى هارون بن هارون الإشبيلي، قال:**

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى *** لم يرع فيك الردى إلا ولا ذمما

ما كنت أحسب أن الحادثات إذا *** همت بك السوء لا تلقى لك السلما

قد كان حسنك فتان الشباب فمذ *** أصبت عوضت منها القبح والهرما

يا جنة زجرتنا عن زخارفها *** ذنوبنا فلزمنا البت والندما

يا سائلي عن مصاب المسلمين بها *** أصخ لتسمع أمرا يورث الصمما

لما تفرقت الأهواء واضطرمت *** نار البغاة فقامت للردى علما

ونوزع الأمر أهلوه وقام به *** من لم يجد قِدما فيه ولا قَدما

ثارت حفائظ للتثليث فابتدروا *** وأيقظوا من سنات الغفلة الهمما

وأنشروا ميّت الأحقاد بينهم *** ولو أطاقوا لعمري أنشروا الرمما

ويمموا حمص في جمع يضيق به *** ذرع الفضاء فسوى الوهد والأكما

فالبحر بالمنشآت ارتج من ذعر *** والبر بالمرهفات ارتاع فاكتتما

واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم *** طسر من الفلك لا تشكو به السأما

فكم أسارى غدت في القيد موثقة *** تشكوا من الذل أقداما لها حطما

وكم صريع رضيع ظل مختطفا *** عن أمه فهو بالأمواج قد فطما

يدعو الوليد أباه وهو في شغل *** عن الجواب بدمع سال وانسجما

فكم ترى والها فيهم و والهة *** لا يرجع الطرف إن حاورته الكلما

لهفي عليهم وما لهفي بمغنية *** عمن تبدل بعد النعمة النقما

إنا إلى الله قد حل المصاب وما *** من حيلة في الذي أمضى وما حتما

في كل حين ترى صرعى مجدلة *** وآخرين أسارى خطبهم عظما

وقد أحاطت بنا الأعداء فارغة *** أفواهها تبتغي أرواحنا طعما

إلى أن قال:

يا عين فابكي على حمص وقول لها *** منك البكاء إذا ما ترسليه دما

فقد أصيبت بها الدنيا وساكنها *** حقا وأصبح ركن الدين قد ثلما

سطا بها الكفر إذ قل النصير بها *** فمن معز بها الإسلام ما سلما

يا أهل وادي الحما بالعدوة انتعشوا *** هذا الذماء فقد أشفى به سقما

فماذا يبطئكم عنا وحق لكم *** أن تبصروا دار قوم أصبحت رمما

وحقنا واجب فالدين يجمعنا *** مع الجوار الذي مازال منتظما

وقد دعونا فأسمعنا على كثب *** بما قد استنفد القرطاس والقلما

فزعم أدفنش أن الحصر يهلكها *** واللهُ يُكذب ما روى وما زعما

إن تنصرونا فإنا منشدون له *** لا يرغم الله إلا أنف من رغما

لا عذر في تركها للكفر مسلمة *** إن الزمان وأنتم فيه ما عقما

كم صارخ فزع كان الصراخ له *** قرع الظنابيب حتى لم يدع ألما

هل من مجيب لداعينا فيركبنا * فلك النجاة فبحر الحادثات طما**

لم يبق فينا سوى الأنفاس خافتة * فكلنا في وجود يشبه العدما**

كم نستغيث ولا إنسان يصرخنا * ونستطب لداء طال ما حسما**

وقد شقينا وأشقينا وحق لنا * بما به الكفر والإسلام قد نعما**

وفي سنة ست وأربعين وستمئة: كان استيلاء الطاغية أدفنش اللعين على مدينة إشبيلية أعادها الله للإسلام، بعدما جرعوا أهلها كأس الحمام، من كثرة المجاعة وعدم الطعام، فكل منهم في بحر المنايا غاص وعام، مما حل بهم من الأوجال والآلام، ما يطول في وصفه وشرحه الكلام، ويستنفذ فيه القراطيس والأقلام، وقد كانوا خاطبوا السعيد بمخاطبات ومكاتبات يحن لسماعها الجماد، يستصرخونه ويرغبونه في سبيل الجهاد، وبينوا له أحوالهم، وتوغلهم في أوحالهم، وكان عازما بزعمه على البلاد الشرقية التونسية والإفريقية، التي لم يبلغ فيها ما أمله من الأمنية، فما عرج على كتبهم ولا خطابهم، ولا رثى لحالهم ولما نابهم وأصابهم، بل اشتغل بحركته المذكورة، وعساكره موفورة، التي كانت غير مؤيدة ولا منصورة" اهـ.

ولست أدري مم أعجب، أمن الإمام ابن منظور إذ جهل مع تقدمه في الفقه أنّ الجهاد لا يجب على أهل إشبيلية كما وصفَ علماء زمننا، وأنهم في حال أشبه بحالِ الصحابة في مكة، أم من أبي موسى في استنصاره بِأهل العدوة واستصراخه المسلمين مع أن ما وقع بهم إنما هو بما جنته أيديهم، أم من ابن عذاري في لومه أمراء المغرب مع أنهم كانوا في حال لا يقدرون معها على مقاتلة الحلف الصليبيّ القشتالي، ولو أنهم هبوا لنصرة إخوانهم لكان ذلك سببا لاجتماع سواد المشركين عليهم، وانفراط

عقد المسلمين، فالعجب كل العجب ممن جعل يلوم الخاذلين القاعدين ولا يلوم المجاهدين الثابتين.

رجع الكلام إلى عنان، قال: "ولما توفي فرناندو الثالث (١٢٥٢ م)، وخلفه ولده ألفونسو العاشر، شعر ابن محفوظ صاحب لبلة أن ملك قشتالة الجديد، ليس له من الحزم والسطوة ما كان لأبيه، فأخذ يتحلل من عهوده، ثم أبي أن يدفع الجزية، وثار بمدينة لبلة الحصينة وامتنع بها، فسار ألفونسو العاشر إلى لبلة في جيش قوي، وضرب حولها الحصار، وكان ضمن حشوده فرقة من جند ابن الأحمر، بعث بها لتشترك في الحصار، وإخضاع ابن محفوظ، وفاء بعهوده القديمة، وبغضا منه لهذا الزعيم الموحدي، بقية الدولة البائدة في شبه الجزيرة".

قلت -بأس-: لا يذهب عنك وأنت تقرأ صنائع الإمام ابن الأحمر النصريّ أنه واضع قواعد الحمراء، والغالبُ بالله الذي أضحى لقبه شعارًا لبنيه من بعده، ولقد مدحه الناسُ بما لا مزيد عليه، حتى كأنه لم يصنع ما ذكرت لك البتة، ولعلهم أن يذكروا قبسا من ذلك على استحياء.

قال الذهبي في تاريخ الإسلام: "السلطان، أبو عبد الله بن الأحمر الأرجوني، صاحب الأندلس، بويع سنة تسع وعشرين بأرجونة، وهي بليدة بالقرب من قرطبة، وكان سعيدا مؤيدا، مدبرا، حازما، بطلا، شجاعا، ذا دين وعفاف، هزم ابن هود ثلاث مرات، ولم تكسر له راية قط، وقد جاء أذفونش فحاصر جيان عامين، وأخذها بالصلح، وعقدت بينهما الهدنة عام اثنتين وأربعين، فدامت عشرين سنة، فعمرت البلاد". اهـ

فللّه هو من ديّن عفيف شجاع لم تكسر له راية قطّ، وعمرت البلاد بمهادنته النصارى، وسلّم الله على يديه بقية الأندلس التي سلّم شطرها لعدوه، وبعد، فلنأخذ في ذكر نبأِ رجل غيره ممن آثر مهادنة العدوّ وطاعته، حتى لا يقع به ما وقع بأهل إشبيليّة وغيرها.

قال ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة: "ولما سمع أهل دمشق كلام أصحاب تيمور فى الصلح وقع اختيارهم فى إرسال قاضي القضاة ابن مفلح الحنبلي، فأرخي من سور دمشق إلى الأرض،وتوجه إلى تيمور واجتمع به وعاد إلى دمشق، وقد خدعه تيمور بتنميق كلامه، وتلطف معه في القول، وترفق له في الكلام، وقال له: هذه بلدة الأنبياء والصحابة، وقد أعتقتها لرسول الله ﷺ صدقة عني وعن أولادي، ولولا حنقي من سودون نائب دمشق عند قتله لرسولي ما أتيتها، وقد صار سودون المذكور فى قبضتي وفي أسري، وقد كان الغرض في مجيئي إلى هنا، ولم يبق لي الآن غرض إلا العود، ولكن لا بد من أخذ عادتي من التقدمة من الطقزات.

وكانت هذه عادته إذا أخذ مدينة صلحا يخرج إليه أهلها من كل نوع من أنواع المأكول والمشروب والدواب والملابس والتحف تسعة؛ يسمون ذلك طقزات، والطقز باللغة التركية: تسعة، وهذه عادة ملوك التتار إلى يومنا هذا.

فلما صار ابن مفلح بدمشق شرع يخذل الناس عن القتال ويثني على تيمور ودينه وحسن اعتقاده ثناء عظيما، ويكف أهل دمشق عن قتاله، فمال معه طائفة من الناس، وخالفه طائفة أخرى وأبوا إلا قتاله، وباتوا ليلة السبت على ذلك، وأصبحوا نهار السبت وقد غلب رأي ابن مفلح على من خالفه، وعزم على إتمام الصلح، ونادى في الناس: إنه من خالف ذلك قتل وهدر دمه، فكف الناس عن القتال".

قلت -بأس-: كأني بك قد أكبرت صنع ابن مفلح الحفيد، ورأيتُه مرجفا مخذلا، ولكن ما تصنع لو كنت مكانه وقد دهم بلادهم تيمورلنك، وهو من هو في بطشه وقوته واتساع ملكه وسلطانه، ولقد أوجف بحمص وحلب وحماة من قبل فلم يبق لها أثرا، وأعمل السيف في أهلها قتلا وتنكيلا، لا غرو قصد الإمام القاضي ابن مفلح إلى الصلح والمداهنة عسى أن يحقن دماء المسلمين، وفيما رووا من أمره بقتل كل من قصد إلى قتال تيمورلنك نفع وأي نفع، فإن ذلك خروج عن الأمة وافتئات عليها، وليس لأحد أن يهلك الجماعة الكبرى من المسلمين بطيشه، فاستصلح الفقيه ومن معه قتل من هذا حاله قربانا لتيمورلنك، وحقنا لدماء الدمشقيين، والفقيه كما مر من يرجح خير الشرين.

رجع الكلام إلى ابن تغري بردي، قال: "وفي الحال قدم رسول تيمور إلى مدينة دمشق في طلب الطقزات المذكورة، فبادر ابن مفلح، واستدعى من القضاة والفقهاء والأعيان والتجار، حمل ذلك كل أحد بحسب حاله، فشرعوا في ذلك حتى كمل، وساروا به إلى باب النصر ليخرجوا به إلى تيمور، فمنعهم نائب قلعة دمشق من ذلك، وهددهم بحريق المدينة عليهم إن فعلوا ذلك، فلم يلتفتوا إلى قوله، وقالوا له: أنت احكم على قلعتك، ونحن نحكم على بلدنا، وتركوا باب النصر وتوجهوا، وأخرجوا الطقزات المذكورة من السور، وتدلى ابن مفلح من السور أيضا ومعه كثير من أعيان دمشق وغيرهم وساروا إلى مخيم تيمور، وباتوا به ليلة الأحد، وعادوا بكرة الأحد، وقد استقر تيمور بجماعة منهم في عدة وظائف: ما بين قاضي القضاة، والوزير، ومستخرج الأموال، ونحو ذلك، معهم فرمان من تيمور لهم، وهو ورقة فيها تسعة أسطر يتضمن أمان أهل دمشق على أنفسهم، وأهليهم خاصة؛ فقرئ الفرمان المذكور على منبر جامع بنى أمية بدمشق، وفتح من أبواب دمشق باب الصغير فقط، وقدم أمير من أمراء تيمور، جلس فيه ليحفظ البلد ممن يعبر إليها من عساكر تيمور، فمشى ذلك على الشاميين وفرحوا به، وأكثر ابن مفلح ومن كان توجه معه من

أعيان دمشق الثناء على تيمور وبث محاسنه وفضائله، ودعا العامة لطاعته وموالاته، وحثهم بأسرهم على جمع المال الذى تقرر لتيمور عليهم، وهو ألف ألف دينار، وفرض ذلك على الناس كلهم، فقاموا به من غير مشقة لكثرة أموالهم، فلما كمل المال حمله ابن مفلح إلى تيمور ووضعه بين يديه، فلما عاينه غضب غضبا شديدا، ولم يرض به، وأمر ابن مفلح ومن معه أن يخرجوا عنه، فأخرجوا من وجهه، ووكل بهم جماعة حتى التزموا بحمل ألف تومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب، إلا أن سعر الذهب عندهم يختلف، وعلى كل حال فيكون جملة ذلك عشرة آلاف ألف دينار، فالتزموا بها، وعادوا إلى البلد، وفرضوها ثانيا على الناس كلها عن أجرة أملاكهم ثلاثة أشهر، وألزموا كل إنسان من ذكر وأنثى حر وعبد بعشرة دراهم، وألزم مباشر كل وقف بحمل مال له جرم، فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانيا بلاء عظيم، وعوقب كثير منهم بالضرب، فغلت الأسعار، وعز وجود الأقوات.. ثم قدم شاه ملك أحد أمراء تيمور إلى مدينة دمشق على أنه نائبها من قبل تيمور.

ثم بعد جمعتين منعوا من إقامة الجمعة بدمشق لكثرة غلبة أصحاب تيمور بدمشق، كل ذلك ونائب القلعة ممتنع بقلعة دمشق، وأعوان تيمور تحاصره أشد حصار، حتى سلمها بعد تسعة وعشرين يوما، وقد رمي عليها بمدافع ومكاحل لا تدخل تحت حصر، يكفيك أن التمرية من عظم ما أعياهم أمر قلعة دمشق بنوا تجاه القلعة قلعة من خشب، فعند فراغهم من بنائها وأرادوا طلوعها ليقاتلوا من أعلاها من هو بالقلعة، رمى أهل قلعة دمشق نفطا فأحرقوها عن آخرها، فأنشئوا قلعة ثانية أعظم من الأولى وطلعوا عليها وقاتلوا أهل القلعة.

هذا وليس بالقلعة المذكورة من المقاتلة إلا نفر يسير دون الأربعين نفرا، وطال عليهم الأمر، ويئسوا من النجدة، وطلبوا الأمان، وسلموها بالأمان. لا شلت يداهم! هؤلاء هم الرجال الشجعان. رحمهم الله تعالى".

قلت -بأس-: قد ترى أن لا منفعة في فعل أهل القلعة، ولو أنهم صنعوا نظير ما صنعته الفقهاء والقضاة لكان ذلك أسلم لهم، أو هكذَا ظنت العلماء والعامّة، وإياك أن تقول بعد:

يرى الجبناء أن العجز عقل * وتلك خديعة الطبع اللئيم**

فإن العلماء لم يذعنوا للأمير تيمور عن ذلة وصغار، ولا عن جبن وطمع، وإنما كان ذلك فقه واقع جهله الممتنعون بالقلعة، ونظرا في المآلات والمصالح على ما سيأتي وصفه.

رجع الكلام إلى ابن تغري بردي، قال: "ولما تكامل حصول المال الذي هو ألف تومان، أخذه ابن مفلح وحمله إلى تيمور؛ فقال تيمور لابن مفلح وأصحابه: هذا المال بحسابنا إنما هو يسوى ثلاثة آلاف ألف دينار، وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار، وظهر لي أنكم عجزتم.

وكان تيمور لما اتفق أولا مع ابن مفلح على ألف ألف دينار يكون ذلك على أهل دمشق خاصة، والذي تركته العساكر المصرية من السلاح والأموال يكون لتيمور، فخرج إليه ابن مفلح بأموال اهل مصر جميعها، فلما صارت كلها إليه وعلم أنه استولى على أموال المصريين ألزمهم بإخراج أموال الذين فروا من دمشق، فسارعوا أيضا إلى حمل ذلك كله، وتدافعوا عنده حتى خلص المال جميعه، فلما كمل ذلك ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع ما في البلد من السلاح جليلها وحقيرها، فتتبعوا ذلك وأخرجوه له حتى لم يبق بها من السلاح شيء، فلما فرغ ذلك كله قبض على ابن مفلح ورفقته، وألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها، **فكتبوا ذلك ودفعوه إليه، ففرقه على**

أمرائه، وقسم البلد بينهم، فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم، ونزل كل أمير في قسمه وطلب من فيه، وطالبهم بالأموال، فحينئذ حل بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف، وأجرى عليهم أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار، والتعليق منكوسا، وغم الأنف بخرقة فيها تراب ناعم كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق، فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يخلى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعا، فكان المعاقب يحسد رفيقه الذى هلك تحت العقوبة على الموت، ويقول: ليتني أموت وأستريح مما أنا فيه، ومع هذا كله تؤخذ نساؤه وبناته وأولاده الذكور، وتقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير، **فيشاهد الرجل المعذب امرأته أو بنته وهي توطأ، وولده وهو يلاط به، يصرخ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط، وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملأ من الناس.**

واستمر هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يوما، آخرها يوم الثلاثاء ثامن عشرين شهر رجب من سنة ثلاث وثمانمائة، فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى".

قلت -بأس-: هذا شيء يكون، ولا يعيبُ ابن مفلح وحاشاه، إذ ليس له إلى علم الغيب سبيل، والنظر في المآلات من مدارك الاجتهاد، وكلّ مجتهد مصيب، وله من الثواب حظ ونصيب، ولعلك تشكّ في الخضوع للطاغوت ومهادنته عن جهالة، وترى أنْ ليس في ذلك منفعة كأنك لم تر قبل أنه قد نفع ابن الأحمر، ولكن ما كل مرة تسلم الجرّة.

ثم لا يذهب عنك أنّ ابن مفلح لم يزل معظما بين المسلمين، ولم يبالي الناس بزلته بالة إذ كانت عن اجتهاد ونظر، ولحوم العلماء هداك الله مسمومة، والعادة في هتك أستار منتقصهم معلومة.

قال جميل الشطي في مختصر طبقات الحنابلة: "إبراهيم بن محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي ثم الدمشقي الصالحي الشيخ الإمام العلامة قاضي القضاة تقي الدين ويقال برهان الدين ابن قاضي القضاة شمس الدين المتقدمة ترجمته وهو ولد الصدر أبي بكر والنظام عمر ولد سنة ٧٥١ وحفظ القرآن وكتبا كثيرة وأخذ عن أبيه والجمال المرداوي وأبي البقاء وغيرهم وسمع من أبي محمد بن القيم والصلاح بن أبي عمر والعرضي ورحل إلى مصر فسمع بها من القلانسي والخلاصي والفارقي ونحوهم وتكلم على الناس فأجاد ودرس فأفاد وولي قضاء الحنابلة بدمشق فحمدت سيرته وكان فاضلا بارعا إماما فقيها تقيا دينا أفتى ودرس وجمع وشاع اسمه واشتهر ذكره ولما طرف الشام تيمورلنك كان ممن تأخر بدمشق فخرج إليه وسعى في الصلح وكثر تردده إليه رجاء الدفع عن المسلمين ثم رجع إلى دمشق ومعه أهالي دمشق مقررا ما رامه من الصلح فلم يجب سؤاله وغدروا به" اهـ.

وقال ابن حميد في السحب الوابلة: "وكان فاضلا، بارعا، بل إماما، فقيها، عالما بمذهبه، دينا، أفتى، ودرس، وجمع، وشاع اسمه، وبعد صيته، واشتهر ذكره، ولما طرق تيمورلنك الشام كان ممن تأخر بدمشق فخرج إليه في الصلح، وتشبه بابن تيمية مع غازان، وكثر ترداده إليه رجاء الرفع عن المسلمين، ثم رجع إلى دمشق وقرر مع أهلها ما رامه من الصلح فلم يجب إلى سؤاله وغدروا به وضعف عند رجوعه". اهـ

فهذا وصف الإمام المجتهد الذي سالت بسببه على ما رووا دماء وأعراض، فدع التعسف والاعتراض.

وإياك أن تحفل بإكفارِ جماعة من الفقهاء تيمورلنك لعدم حكمه بما أنزل الله واتخاذه الياسق شريعة له ولجنده، أو أن تنقل **قول ابن حجر في إنباء الغمر**: "وكان يقدم قواعد جنكز خان ويجعلها أصلاً ولذلك أفتى جمع جم بكفره مع أن شعائر الإسلام في بلاد ظاهرة"، أو **قول ابن عربشاه في عجائب المقدور**: "وكان معتقداً للقواعد الجنكيزخانية، وهي كفروع الفقه من الملة الإسلامية، وممشياً لها على الطريقة المحمدية، وكذلك كل الجغتاي وأهل الدشت والخطا وتركستان وأولئك الطغام، كلهم يمشون قواعد الملعون جنكيزخان على قواعد الإسلام ومن هذه الجهة أفتى كل من مولانا وشيخنا حافظ الدين محمد البزازي رحمه الله، ومولانا وسيدنا وشيخنا علاء الدين محمد البخاري أبقاه الله، وغيرهما من العلماء الأعلام، وأئمة الإسلام، بكفر تيمور وبكفر من يقدم القواعد الجنكيزخانية على الشريعة الإسلامية، ومن جهات أخرى أيضاً".

إياك أن تحتج بهذا وما أشبهه إذ كان كلّه على ما زعم أحبار زمننا غُلوًّا وشططا، وقد كان تيمورلنك كثير التسبيح والتحميد فيما رووا عنه، معظّما للعلم وأهله، حتى أن ابن خلدون ذكر فيما ذكر من اتصاله به أنه أهداه مصحفا، فلما بصر به وعرفه قام مبادرا فوضعه على رأسه وهش به وبشّ، وبالحري أن من كان هذا شأنه فليس من الشر في شيء، وكيف وهو يشهد شهادة الحق، وما على من تلفظ بها بأس إن هو ترك العمل بموجبها ومقتضاها!، أو هكذا زعْم شيوخ وعلماء الأمة في زمننا هذا.

وبعد، فهذا جزء إن أمعنت فيه نظرك لم تكد تخطئ وجه الحق فيما اختلف فيه أهل زمنك، وكنت قد استغنيت بالخبر عن النظر في الفقهِ وأقوال الأحبار والرهبان، ولا غالب إلا الله.

نجز والحمد لله وهو حسبنا ونعم الوكيل